العدد: 03/سبتمبر 2010 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص: 68 - 74 EISSN: 2602-5973

قراءة في الموازنة للآمدي

فوزية بوكايس

جامعة طاهري محمد – بشار – الجزائر

الملخص :

انبنت الرؤية النقدية للآمدي في موازنته بين الطائيين على اللغة بوصفها مستلهمة لتلك الروح التي سكنت معاني الشعر في شكل ثابت تقليدي مع البحتري وفي شكل نابض بهوس التجديد مع أبي تمام؛ محاولا إثبات تلك الرؤية بعديد الشواهد الشعرية محتكما لها كما لو أنها القاعدة في النظم وما سواها تكلف فحسب.

الكلمات المفتاحية:

الشعر– الأبنية– الأحكام– التقابل – المعنى – السرقة.

الموازنة التي أقامها **الآمدي** آلية تكشف عن تباين واختلاف وتمايز أبنية النصوص الشعرية لكل من **أبي تمام** و**البحتري** ويمكننا في هذه الحال أن نتساءل عن المعايير والمقاسات التي احتكم لها الآمدي – في موازنته – وعن مدى جدارتها وفاعليتها في مرحلة باكرة كهذه في تاريخ النقد الأدبي من ناحية ثم إن كانت أحكامه النقدية التي ينتهي إليها قريبة من حداثة الصرح الشعري من ناحية أخرى، إذ جعل من الشعر الجاهلي الفيصل الحاسم بين الشعرية لصيقة باللغة وتشكلها كأن يقول في باب البكاء على النساء المفارقات بأن أبا تمام يقول:

سرتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوى غدِ	
	وعَادَ قَتاداً عِنْدَها كُلُّ مَرْقدِ

وهذا ابتداء ليس من الابتداءات الجيدة ولا من رديئها ومثله قوله:

بسطت إليك بنانة أسروعا	
	تصف الفراق، ومقلة ينبوعا

وفي الباب نفسه يذكر الآمدي إبتداء جيدا لأبي تمام إذ يقول:

بذلث عبّرَةً مِنَ الإيماضي	
	يوم شدّوا الرّحال بالأغراض

ومثل قوله الأغراض مما قالت ونطقت به العرب كقول الراجز في وصف الإبل:

حتى إذا ما قلقت أغراضها	
	ونصحت بمائها أعراضها

ذلك أن ابن عمار وغيره أعابوا على أبي تمام ذكره هذا اللفظ (الأغراض).

أما في باب الفراق في معان شتى فيذكر الآمدي بيتا لأبي تمام ومعناه ليس من اختراعاته بل هو من سرقاته وهو البيت الآتي:

أصمّني سرُّهم أيامَ فُرقَتِهم	
	هل كنتَ تعرفُ سراً يورثُ الصمما

وبالنسبة لباب البكاء والدموع فقد أشار الآمدي إلى بيت لأبي تمام:

لَوْ صَحَّحَ الدَّمْعُ لي أوْ ناصَحَ الكَمَدُ	
	لقلَّما صَحِباك الحدوالكَبدُ

ويصفه الآمدي بالبيت الصالح وليس بالجيد.

وعن السهر وطول الليل يعترف الآمدي للطائيين بأنهما أجادا التعبير عنه ولم يسبقهما شاعر قديم ولا محدث فيه حين قال أبو تمام :

أفنى وليلي ليسَ يفنى آخرهُ	
	هاتا مواردهُ فأينَ مصادرهُ؟

هذا ابتداء حسنه وكلام سجسج ومعنى جيد بالغ.

العدد: 03/سبتمبر2010 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص: 68 - 74 EISSN: 2602-5973

وقد أخد البحتري معنى هذا الصدر فقال:

له الويل من ليل بطاء أواخره	
	ووشك نوى حي تزم أباعره

بينما ذكر الآمدي للبحتري سبع أبيات كلها ابتداءات جياد لفظا ومعنى وبأنه لا يعرف لأبي تمام في نحولها شيئا ضمن باب التشوق.

وهكذا تنبني موازنة الآمدي بين الطائيين أبو تمام والبحتري على نهج من التقابل المتكافئ إذ يؤدي بينهما وحدة من المحددات التقيسية.

كما ورد في باب ما قالاه في الجمال وحسن الوجود ومنه قوله أبي تمام:

لحقنا بأخراهم وقدْ حومَ الهوى	**قُلُوباً عَهِدْنا طَيرَها وَهْيَ وُقَّعُ**
فردتْ علينا الشمسُ والليلُ راغمٌ	**بشمسٍ لهم منْ جانب الخدرِ تطلعُ**
نضَا ضَوْءُ هَا صِبْغَ الدُّجنَّةِ فانطَوَى	**لبهجتها ثوبُ السماء المجزعُ**
فواللهِ ما أدري أأحلامُ نائمٍ	**أَلَمَّتْ بنا أَمْ كانَ في الرَّكْبِ يُوشَعُ**
وعَهْدِي بها تُحْيِي الهَوَى وتُمِيتُه	**وتشعبُ أعشارَ الفؤادِ وتصدعُ**
وأقرَعُ بالْعُتْبَى حُميَّا عِتَابها	**وقدْ تستقيدُ الراحَ حينَ تشعشعُ**
وتَقْفُو إلى الجَدْوَى بجَدْوَى وإنَّما	**يروقكَ بيتُ الشعرِ حينَ يصرعُ**

من جهة أخرى ينطلق الآمدي في شرح القطعة الشعرية ويناظرها ببعض أبيات الشعر الجاهلي لينتهي في آخر شرحه إلى كون هذه المعاني المستحدثة التي أرادها أبو تمام كلها معان شعرية صحيحة مستقيمة واستعارات دقيقة لائقة بما استعيرت له، باستثناء قوله:

وتقفو لي الجدوى بجدوى وإنما	
	يروقك بيت الشعر حين يصرع

وليس البيت بخاطئ ولكنه في الوقت نفسه ليس بالجيد اللائق والجيد فيه قول البحتري :

فإن تتبع النعمى بنعمى فإنه	
	لزين اللآلي في النظام ازدواجها

ويواصل الآمدي في موازنته لأبيات أبي تمام مع أبيات لشعراء سبقوه لينعت أبياته التالية بالتكلف – بخاصة منها قوله " فابتكرت بكرا ولكن غدا مجرانها نصفا" فإنه غير شهي ولا مريء اللفظ ولا المعنى –

إذ يقول :

وفي الخدورِ مهاً لو أنها شعرتْ	**إذاً ظغتْ فرحاً أو أبلستْ أسفا**
لآلىءُ كالنجومِ الزهرِ قد لبستْ	**أَبشَارُها صَدَفَ الإحسان لا الصَّدفَا**
منْ كلِّ خودٍ دعاها البينُ فابتكرتْ	**بكراً ولكنْ غدا هجرانها نصفا**
لا أَظْلِمُ النَّأْيَ قَدْ كانَتْ خلاَئِقُها	**منْ قبل وشكِ النوى عندي نوىً قذفا**

كما أننا نلفي الآمدي هاهنا يتعامل بشكل خاص وجلي مع اللغة وتجاوزاتها عند أبي تمام ليتتبع بذلك –الآمدي– أخطاء الشاعر، التي تقوم حسبه على عدم إستقامة المعنى وعلى مخالفة الإستعمال المألوف للغة العربية كأن يقول أبو تمام :

وكأن الجريال سيب بماء الدر	
	في خدها بماء العقيق

ويوضح الآمدي هذا البيت كالآتي:

إن أراد الشاعر بالجريال الخمر نفسها فإن الخمرة بحمرة لونها مستغنية عن ماء العتيق لأنها أنصع وأحسن وفي هذه الحال جمع الشاعر بين شيئين لا يتشابهان.

ويبدو من خلال التعامل مع الآمدي ضمن موازنته بين الطائيين أنه انزعج لأمر أي تمام وحسبنا على هذا المثال التالي: إذ قال أبو تمام:

رودٌ أصابتها النوى في خردٍ	**كانتْ بدورِ دجنةٍ وشموسا**
وكأنما أهدى شقائقهُ إلى	**وجَنَاتِهِنَّ بها أبو قَابُوسَا**
بيضٌ تَدُورُ عُيُونُهُنَّ إلى الصبَا	**فكأنهنَّ بها يدرنَ كووسا**

وعنها يقول الآمدي أنها أبيات صالحات، ثم جن بعد هذا الشاعر فقال :

لولا حداثتها وأني لا أرى	**عَرْشاً لها لَظَنَنْتُهَا بِلْقيسَا**

ويعقب حول هذا البيت الآمدي قائلا: فأي شيء يزيدك على هذه الحماقة؟ ثم يقابله بيت للبحتري إذ يقول:

سفرت كما سفر الربيع الطلق عن	
	ورد يرقرقه الضحى مصقول
وتبسمت عن لؤلؤ في رصفه	
	برد يرد حشاشة المتبول

ويتساءل أي شيء يزيدك على هذا الإحسان؟

ولعلنا لا نجانب الصواب إن زعمنا أن الآمدي في كثير من الأحيان إذ يوازن بين شعر أبي تمام وشعر البحتري يلقي نظرة جزئيةموضعية مسايرا بذلك عصره، إذ يفصل البيت أو يضع أبيات من القصيدة ليرجح فكرة الجودة والرداءة في موازنته لهذا الجزء بتراتبية من شواهد شعرية للعصر الجاهلي.

العدد: 03/سبتمبر 2010 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص: 68 - 74 EISSN: 2602-5973

ونمثل لهذا بما يلي قال أبو تمام:

أتصعصعت عبراتُ عينكَ أن دعتْ	**ورقاءُ حين تصعصعَ الإظلامُ.**
لاتَنشِجَنَّ لَها فإنَّ بكَاءَها	**ضَحِكٌ، وإنَّ بُكَاءَكَ استِغْرَامُ**
هنَّ الحمامُ فإن كسرتَ عيافةً	**منْ حائهنَّ فإنَّهنَّ حمامُ**

وههنا معارضات عوض بها الشاعر أبو تمام:

قول البحتري بن عزافر الحرشي:

أإن غردت يوماً بواد حمامة	**بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر**

ونحو قول ابن الدمينة:

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى	**على غصن غض النبات من الرند**
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن	**جليداً وأبديت الذي لم تكن تبدي**

ومثله قول الأحوص:

أأن نادى هديلاً يوم فلج	**مع الإشراف في فنن حمام**
مع الإشراف في فنن حمام	**هوى نسقاً وأسلمه النظام**

ونحو قول آخر من بني قشير، وأنشده أو حاتم:

أتجزع أن ورق الحمام تغردا	**بكى شجوه أو جاوب اليوم هدهدا**

وفي قول أبي تمام (أتضعضعت عبرات عينيك): توبيخ لذاته ونفسه على البكاء من أجل بكاء الحماقة ، ولما قال (فإنهن حمام) كانت هذه مناقضة ظاهره، وبالتالي عيب هذا الشاعر في هذا المعنى.

العدد: 03/سبتمبر 2010 المجلد: 03 ISSN: 1112-7015
ص: 68 - 74 EISSN: 2602-5973

ويبقى السبب في إصدار مثل هذه الأحكام على بعض أشعار أبي تمام هو تجديده لبنية النص الفنية كنتيجة حتمية لرؤية الشاعر المميزة والخاصة. لحد أنه يمكننا أن نعترف بأن إنحرافات وتجاوزات أبي تمام في شعره- وكما يسميها الآمدي العيوب – قد احتلت الجزء الأكبر في موازنة الآمدي في حال قورنت بما يذكر من عيوب للبحتري ومن ثم يتضح إنحيازه الكبير للبحتري على حساب تكلف وصنعة أبي تمام.

ويتضح جليا مذهب الآمدي في رصد أخطاء أبي تمام من خلال تجاوز اللغة المعيارية المألوفة لدى الشعراء السابقين له كأساس لموازنته كما يعكسه المثال الآتي إذ قال أبو تمام:

شابَ رأسي ، وما رأيتُ مشيبَ ال	**رأسِ إلاَّ منْ فضلِ شيبِ الفؤادِ**
وكَذاكَ القُلُوبُ في كُل بُؤْسٍ	**ونَعِيمٍ طَلائعُ الأجْسَادِ**
طَالَ إنْكَارِيَ البَيَاضَ وإنْ عُم	**رْتُ حيناً، أنكرتُ لونَ السوادِ**
زارني شخصهُ بطلعة ضيمٍ	**عمرتْ مجلسي من العوادِ**
نَالَ رَأْسِي منْ ثُغْرَةِ الهم ما	**لَمْيَسْتَنِلْهُ مِنْ ثُغْرةِ المِيلادِ**

فقوله (عمدت مجلسي من العواد) معنى لا حقيقة له، لأن يقول –الآمدي– ما رأينا ولا سمعنا أحدا جاءه عواد يعودونه من الشيب، ولا أن أحدا أمرضه الشيب ولا عزاه المعزون عن الشباب وبذلك أحب أبو تمام أن يخرج عن عادات بني آدم، ويكون أمة وحده.